المعنى طرائقه وأثر العناصر غير اللغوية في تحقيقه عند العرب

الدكتور

إبراهيم الأغبش الأمين عبد الدافع

أستاذ مشارك – جامعة المجمعة — كلية التربية بالزلفي

عنوان البحث : المعنى طرائقه وأثر العناصر غير اللغوية في تحقيقه عند العرب

كلمات مفتاحية : طرائق – غير لغوية – المعني – السياق– المقام – الدلالة – الحال – اللغويين – البلاغيين .

اسم الباحث :إبراهيم الأغبش الأمين عبد الدافغ

عنوان الباحث : كلية التربية بالزلفى جامعة المجمعة الملكة العربية السعودية

التوصيف الأكاديمي: أستاذ مشارك

الإميل الخاص: abdeldafi14@gmail.com

غ

تعد دراسة المعنى من الأهمية بمكان في الدرس اللغوي قديماً وحديثاً، وتأتى أهمية هذا البحث من أنه يُظهر جهداً فكرياً في الحقل الدلالي من قِبل العرب، وتخص الدراسة (المعنى طرائقه وأثر العناصر غير اللغوية في تحقيقه عند العرب).

ويهدف هذا البحث لإبانة طرائق العرب في سبر أغوار المعنى، وأدراكهم للعناصر غير اللغوية ذات الأثر على المعنى، وإظهار جهدهم وسبقهم في هذا المجال من البحث اللغوي. واتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي، وتوصل الباحث إلى نتائج من أهمها: اهتمام العرب بالمبحث الدلالي اهتماماً بالغاً قديماً وحديثاً وسبقهم في هذا المجال ومعرفتهم القديمة للعناصر غير اللغوية وأثرها في الخطاب وأهميتها في الإبلاغ.

وأن علماء العرب اختلفت مناهجهم في طرائق استقصاء المعنى باختلاف غاية كل باحث أو عالم حسب مجاله وأهدافه ومصدر نصه قُدسي كان أم بشري. كما أن كثرة طرائق معرفة المعنى عند العرب يُوحي بسبقهم في البحث الدلالي، وكذلك معرفة العرب لمصطلحات الحال والمقام والسياق والاقتضاء تدل على إدراك العرب للعناصر غير اللغوية ذات الأثر في المعنى. تَّوصي الدراسة بالإفادة من الآراء المبثوثة في ثنايا كتب التفسير والبلاغة وتوظيفها في مباحث علم الدلالة وخاصة الدلالة الصوتية والتركيبة والاهتمام بالعناصر غير اللغوية وأثرها في أدراك المكتوب والمنطوق وتحليل النصوص.

غ

The meanings' Methods and Its Effect in the Non-Linguistics Elements Achievements in Arab Language

The study of meaning is given paramount importance in the language lesson past and present. The main point of this paper is the elucidation of the intellectual effort of the Arabs in the field of semantics. The study specifically concerns the methods of making meaning and the effect of the non-linguistic elements contributing to its realization. The aim of the study is to show the Arabs methods of exploring meaning and their understanding of the non-linguistic elements influencing meaning, and secondly to demonstrate their pioneering work in the field of linguistic study. The author has used the analytical descriptive approach which led to the following main conclusions: The great importance given by the Arabs, in the past as well as in the present, to the study of meaning, their pioneering work in this field and their awareness of the non-linguistic aspects of meaning and their importance in the construction of meaning. Arab scholars approaches in their methods of exploring meaning have differed according to the specific goals of each researchr and scholar in relation to his specific field and his objectives and the source of his text sacred or profane. The multiplicity of methods in the Arabs study of meaning shows their pioneering work in the semantic study. Moreover, the Arabs' knowledge of the concepts of ٠

غ

يُعد الاهتمام بدراسة المعني اللغوي أو المعنى بمفهومه العام أو الحقل الدلالي هو قمة الدراسات اللغوية الحديثة، لأنه يُعين المتلقي أو القارئ في فهم وإدراك المقصود من الرسالة أو الخطاب. ولهذا ولغيره تهدف هذه الدراسة لكشف النقاب عن جهود علماء العربية في المعنى وطرائقهم في استقصائه وسبل مباشرته وإشكاليات تحديده والاختلاف في شأنه، والوقوف على نظرية المقام ومقتضيات الأحوال، وتعريف المقام عند اللغويين والمفسرين والبلاغيين وعلماء الأصول والتفسير، ووضع حد لمقتضى الحال، ثم الإشارة لظروف الخطاب والمقال غير اللغوية وأثرها في الحقل الدلالي. وهذه المباحث قد تناولها الباحثون مفردة أحياناً ومجتمعة أخرى، كما أنهم عند تناول هذه المباحث، ما بين متأثر بالقديم ومُتبع للحديث مما أدى إلى اضطراب المصطلح الدلالي أو اللغوي عندهم أو الخلط بين مفهوم المصطلح قديماً وحديثاً.

وقد اتخذ الباحث المنهج الوصفي التحليلي وذلك بتحليل ووصف جهود العرب في المعنى وطرائق البحث فيه وأثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعني وفهمه، ثم أورد الباحث شواهد لما ذهب إليه من أجل إظهار قيمة المصطلح البلاغي أو الدلالي وتحققه في الذهن. ومن هنا تظهر حدود البحث فيما اتخذه العرب من طرائق لإدراك معاني ألفاظهم ومعرفتهم للعناصر غير اللغوية ذات الأثر في الخطاب.

ويأتي هذا البحث في سبعة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: أهمية المبحث الدلالي عند العرب

المبحث الثاني: طرائق العرب في مباشرة المعنى معجمياً

المبحث الثالث: العناصر غير اللغوية وأهميتها في المعنى

المبحث الرابع: فكرة السياق والمقام والحال وأثرهما في فهم المعنى

المبحث الخامس: فكرة السياق والمقام والحال عند النحاة واللغويين

المبحث السادس: فكرة السياق والمقام والحال عند النقاد والبلاغيين

المبحث السابع: فكرة السياق والمقام والحال عند الأصوليين والمفسرين. ولتتبع هذه المباحث تفصيلاً يقف الباحث على مدي اهتمام العرب بالمبحث الدلالي في لغتهم.

المبحث الأول

أهمية المبحث الدلالي عند العرب

برع الفكر العربي قديماً في سبر أغوار القضايا المتعلقة باللغة الإنسانية، ومعرفة العناصر غير اللغوية ذات الأثر في الإبلاغ الخطابي أو الكتابي. كما أهتم العرب بالمعنى لأنه مقصد حديثهم وهدف خطابهم وتظهر أهمية المعنى من أنه يُعين(على فهم النصوص فهماً صحيحاً دقيقاً، ففي ميدان الحقوق والقانون مجال كبير للاختلاف على دلالة الألفاظ، وفي المعاهدات الدولية والاتفاقات التجارية والمعاملات الاقتصادية، وفي ميدان الدين وخاصة في الفقه الإسلامي تحتل النصوص موقعاً خاصاً، ويتعلق على فهمها تحديد الأفكار في العقائد والأحكام في قضايا المعاملات والعبادات، ويقع لذلك الاختلاف في فهم مراد الشارع وتحديد معاني الألفاظ في القرآن والحديث)[١].

كما أن فهم المعني المقصود من الخطاب بأنواعه المختلفة يحدد علاقات الدول ويحقق أغراض البشر، وقصور المعني عن مقصوده بسبب ضعف آلياته الأساسية أو الثانوية له عظيم الأثر في شكل الخطاب ومضمونه ويظهر اهتمام العرب بالمعنى عند حديثهم عن قضية اللفظ و المعنى وهى من أقدم القضايا اللغوية عند العرب، وقد أشار إليها عمرو بن بحر الجاحظ في (البيان و التبين) حين أورد صحفية بشر بن المعتمر في هذا الشأن، وما أُثير باكراً في

١- فقه اللغة وخصائص العربية، المبارك / ص ١٥٨

تلك القضية اللغوية، وقد ذهبوا فيها مذاهب شتى، فمنهم من جعل الشأن للألفاظ دون المعاني ومنهم من قال بأهمية المعاني دون الألفاظ، ومنهم من توسط بين الفريقين، ولعل ذلك هو المذهب المتقبل عند الباحث .

ولأن الألفاظ اللغوية تحي حياتها الخاصة في داخل النصوص أو التراكيب والجمل، وتختلف دلالتها حسب وضعها في تلك التراكيب، ومواطن الخطاب أو الكتابة تبعاً للسياق والحال، كما أن المعني يتأثر بعناصر لغوية وأخري غير لغوية. وأن الوحدات الكلامية للغة ليست هي الكلمات وتراكيبها، بل هناك مكون غير كلامي يُفرض دائماً بالضرورة فوق المكون الكلامي الظاهر في كل وحدة كلامية محكية. وهذا المكون غير الكلامي يترك أثراً واضحاً في دلالة لألفاظ الشيء الذي يجعل اللغة بالغة التعقيد والوصف والتفسير عند استدراك العناصر الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها.

وخاصة أن اللغة في مجملها تسعى للتعبير عن الأغراض والتواصل. ولا يكون هذا إلا بعد الفهم الصحيح للنص، وليتحقق الفهم إلا بالإبلاغ، وسنام البلاغة التماس حسن الموقع و المعرفة بساعات القول وأن (لا يُكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم)[١] .

١- البيان والتبين، الجاحظ، ج١ / ص٩٢-٩٣.

والناظر في تأريخ علم الدلالة اللغوية عند العرب، يجده قد تقدم على كثير من الأمم. فبدأ البحث الدلالي عندهم منذ القرن الأول الهجري، مما يُوحي بأهمية المعني عندهم ، والقرآن الكريم هو الدافع الأساس والمحفز الأول للبحث في اللغة قاطبة وفي المعني على وجه الخصوص وذلك لأن المعني هو حصيلة العملية اللغوية وخلاصة الرسائل الربانية والإنسانية، وتتعاون كل عناصر اللغة ومستوياتها لإظهاره، ولهذا كان اهتمام العرب به أشد وعنايتهم به أفخم قدراً، ويقول في ذلك ابن جني: (فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها)[١].

ويقصد بذلك أن العرب اهتموا بالبحوث الدلالية وقدروها حق قدرها، وأدركوا أهميتها بسجاياهم قديماً وأفردوا لها الفصول والمباحث في كتبهم حديثاً، وأظهروا مدى وعيهم (القدامى) بالخطاب واهتمامهم بالمقام، واشاروا إلى أهمية المعني في الاعتقاد والتشريع ويقول ابن جني:(لأن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها فإنما استهواه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطبت الكافة بها)[٢].

لعل ابن جني أراد بالقصد هنا: المعنى المقصود من التعبير اللغوي في الخطاب الشرعي وأراد بالطريقة المثلى: سنن العرب في الخطاب ورعايتهم لذلك، ولأن جهل المفسر من البشر بأساليب العرب البلاغية في الخطاب

١ - الخصائص، ابن جني، ج١ / ص٢١٥

٢ - الخصائص، ابن جني، ج١ / ص٢١٥

يجعله يُحمِل النص الخطابي على غير مقصوده فيضِل ويُضُل. وكذلك يُظهر ابن جنى أهمية أدراك المعاني أو الدلالات في صحة الاعتقاد والتشريع، كما أن فهمها يعتمد أساساً على معرفة عميقة باللغة وألفاظها وتراكيبها، ومستويات الدلالة وفيها وأحوال المخاطب ونوع الخطاب وغير ذلك.

ويُحسن الإشارة هنا إلى أن العرب لهم وعي مبكر بظاهرة الكلام وما به من عناصر مؤثرة فيه. كالسامع والمقام والظروف وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط، وقد دلت كثيرُ من الأمثلة على فهم العرب المتقدم في هذا المجال وخاصة في التراث البلاغي العربي وعند علماء التفسير والأصول والفقه وكذلك علماء الحديث، و الأدب والنقد، لكنهم اختلفوا في طرق تناول المعني والعناصر غير اللغوية المؤثرة في صياغته مع اختلاف غاية كل باحث آو عالم حسب مجاله أو أهدافه من البحث ومصادر تلك النصوص، مقدسة كانت أم بشرية، منثورة كانت أو منظومة، فقد تحدث علماء التفسير عن أسباب النزول وتحدث علماء الحديث عن أسباب الورود وصور التقرير في السنة النبوية المطهرة، وأحوال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في الخطاب وصفة صوته وطريقة كلامه-صلى الله عليه وسلم- وغير ذلك، وتحدث الأدباء والنقاد عن أسباب وظروف الإنشاد وعن النصوص ومناسبتها وأثرها والحالة الشعورية والنفسية وغيره. وقد اتبع العرب طرائق عدة لسبر أغوار المعني ويظهر ذلك من خلال جهدهم في المعاجم اللغوية، ويمكن الوقوف على تلك الطرائق في المبحث.

المبحث الثاني

طرائق العرب في مباشرة المعني معجمياً

مما هو جدير بالملاحظة والبحث أن طرائق العرب في سبر أغوار المعنى داخل المعجم العربي متعددة ويمكن أن يجملها الباحث فيما يلي:

أولها: هو بيان معنى اللفظ بياناً مقارباً: - بحث يظهر معنى اللفظ بتقريبه لا على وجه التحرير والدقة بل بذكر كلمة أو كلمات تقرب منه، ويستخدم اللغويون العرب اساليب لمعرفة المعنى بهذه الطريقة وهي: -

أ- بيان معنى اللفظ بذكر مرادفه أو مقاربه، أي بذكر أقرب لفظ إليه في المعنى، ويتمثل هذا في المعاجم المختصرة والمتأخرة مثل (القاموس المحيط) للفيروزآبادي، إذ أنه جرد الكلمات عن سياقها، حذف الأمثلة والشواهد إلا ما ندر، وقد أستخدم ذات الطريقة أصحاب المعاجم مزدوجة اللغة. فيأتي معنى الكلمة هكذا: (الآية بالعلامة)[١]، (الأمّ بالقصد)[٢] و(الأسى بالحزن)[٣]، و(البقاء بالدوام)[٤]، و(الجيد بالعنق)[٥]، وغير ذلك من الألفاظ التي وضحوا

١- لسان العرب، ابن منظور، ج ١/ ص ١٨٥.

٢- تهذيب اللغة، الأزهري، ج١٥ / ص٦٤٠

٣ - المفردات، الأصفهاني / ص١٨

٤ - لسان العرب، ابن منظور، مادة (بقي)

٥ - تهذيب اللغة، الأزهري، ج١١/ ض١٦٣

معناه بذكر مرادفها أو القريب من معناها، وهذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في سائر المؤلفات اللغوية.

ب- بيان معنى اللفظ بذكر ضده، أو مقابله: - استخدمت هذه الطريقة في المعاجم المختصرة بوضوح ولكنها في المعاجم المطولة ووجدت متناثرة. وهذه الطريقة شائعة الاستعمال ويكتفى الباحث بذكر بعض الأمثلة عليها، وقد وردت الالفاظ وضدها في الذكر الحكيم نحو قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأنعام: ٥٩.

ومنها الظلمات والنور- الظل والحرور- السيئة والحسنة - ومن امثلة هذه الطريقة في مؤلفات اللغوية: (الأول بأنه يقابل الآخر)[١]،(الإنس خلاف الجن)[٢]، و(البرد ضد الحر)[٣]

ج- بيان معني اللفظ بذكر نظيره: - وهذه الطريقة استخدامها علماء العرب القدامى في إظهار المعنى مثل الأصمعي في كتابه الفرق[٤]، وكذلك ابن

١ - جمهرة اللغة، ابن دريد، ج٣ / ص٢٣٧

٢- المفردات، الأصفهاني / ص٢٨

٣ - تاج العروس، الزبيدي، مادة (برد).

٤- الفرق، الأصمعي. ص٥٨،٥٧

فارس[١] وقد بين هؤلاء معاني الألفاظ بذكر نظائرها إذ يقول الأصمعي مثلاً في (باب الشفة: هي في الإنسان الشفة... ويقال لها من البعير: المشفران ... وهما من ذوات الحافر الجحفلتان ... ويقال له من ذوات الأظلاف: المِقَمة ... ويقال له من السباع الخطم والخرطوم. ومن الطائر المنقار ...)[٢] .

ثانيها: بيان معنى اللفظ بتحريره:- والمراد بالتحرير في اللغة: (بيان المعني بالكتابة)[٣]. والمراد بتحرير المعنى هو: بيان معنى اللفظ بياناً دقيقاً، يرفع مظنة اللبس لدى السامع أو القارئ. للتحرير طرق متعددة في بيان معاني الألفاظ تتمثل في: -

أ- تحرير معنى اللفظ بشرحه، وتهدف هذه الطريقة لبيان المشروح وإخراجه من وجه الإشكال إلى التجلي والظهور. وهذه الطريقة تظهر جلياً، في المعاجم المطولة، وبعض المصنفات الخاصة بمستوى معين من مستويات الأدبية نثراً وشعراً. كما يجد الباحث ذلك في كتاب الراغب الاصفهاني المفردات إذ يقول مبيناً معنى كلمة (الاسف): (الاسف: الغضب والحُزن معاً، وقد يطلق على كل منهما بانفراده، وحقيقته: ثوران دم القلب شهوة الانتقام، فمتى كان على من تحته انتشر فصار غضباً، وعلى من فوقه انقبض فصار حزناً)[٤]

١ - الفرق، ابن فارس.ص٣٦

٢ - الفرق، الأصمعي / ص٥٧-٥٨

٣- تهذيب اللغة، الأزهري، ج٣ / ص٣٤٢

٤ - المفردات، الأصفهاني / ص١٧

ب - تحرير معنى اللفظ بتفصيله، وقد استخدم هذه الطريقة علماء اللغة الأوائل ومنهم أصحاب المعاجم المطولة مثل ابن منظور في لسان العرب، والزبيدي في تاج العروس، وهذه الطريقة من تحرير المعنى توضح صور أو صفات أو أقسام تجلى صورة المعنى متعددة تبدو كأمثلة، تزيل الغموض وتثبت المعنى في الذهن بصوته المنشودة ومعناه المقصود. فمثلاً لفظ (الامة) يفصل معناه بأنه: الجماعة من الناس الذين يجمعهم دين أو زمان أو مكان سواء كان الجامع اختيارياً أم قهرياً)[١].

ومن ذلك شرحه تقسيماً لكلمة (الباقي) إلى: باقٍ بنفسه، وهو الباري تعالى، فليس له مدة ولا يُصح عليه الفناء. وباقٍ بالله تبارك وتعالى، وهذا ينقسم إلى قسمين:

باق بشخصه إلى أن يفنيه الله تعالى، وذلك كبقاء الأجرام السماوية. وباق بنوعه وجنسه دون شخصه وجزئه كالإنسان والحيوان)[٢] .

ج- تحرير معنى اللفظ بالفرق بينه وبين غيره، صيغة أو معنى، وذلك أن الألفاظ تلتبس مع غيرها بسبب التطور الدلالي الذى طرأ على تلك الالفاظ في أطوار حياتها فتختلط وتصبح بمعنى واحد نتيجة للاستعمال، ونجد هذه الطريقة استخدمها الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) ليوضح الخفاء واللبس بين الخشوع والخضوع بقوله: (الخشوع قريب المعنى من الخضوع،

١ - المفردات، الأصفهاني / ص٢٣

٢ - المرجع السابق / ص ٥٧

إلا أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستحذاء، والخشوع في الصوت والبصر. قال الله عز وجل ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [سورة المعارج:٤٤]

وقال تعالى قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨ ﴾ طه:١٠٨ أي سكنت[1]

د- تحرير معنى اللفظ بترتيبه: وهذه الطريقة استخدمها اللغويون قديماً، لأن معاني الألفاظ في المجال الواحد أو في الحقل الدلالي الواحد، قد تلتبس، كالوليد والرضيع، وكالناشئ والوليد، وتحديد رتبة كل طور منها يحدد معناها، قطرب – ٢٠٦هـ(ما خالف فيه الإنسان البهيمة في أسماء الوحوش وصفاتها)- الفرق للأصمعي - ولأبي حاتم السجستاني - ولثابت بن أبي ثابت – ولابن فارس. فروق اللغات في التميز بين مفاد الكلمات - لنعمة الله الجزائري. ولما كان المعنى متأثراً بعوامل خارج اللغة، كان لابد للباحث أن يقف على تلك العناصر أو العوامل غير اللغوية ذات الأثر في توجيه المعنى وتحقيقه.

١ - العين، الفراهيدي، ج١ / ص١٢٩.

المبحث الثالث

أهمية العناصر غير اللغوية تحقيق المعنى

والباحث في اللغة يجد أن هناك عناصر غير لغوية تترك أثراً واضحاً في فهم المنطوق أو المكتوب من اللغة، بل هي جزء من معنى الكلام،(وذلك كشخصية المتكلم وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات وما يحيط بكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به)[١].

وان مراعاة تلك الظروف والاعتبارات المختلفة تمثل الطريق العلمي الصحيح لكشف معانى ومقاصد الكلام، كما أن إتباع هذا المنهج وتطبيقه ضروري لكشف المعنى وسبر أغوار النصوص، سواء أكانت نصوص منطوقة: وهي ذات المقام الحاضر أو مكتوبة وهى: ذات المقام المنقضي والذي يمكن أن يعاد بناؤه بالوصف التاريخي، وهذا يعنى أن المعنى المعجمي أو القاموسي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام، فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل هي جزء من معنى الكلام وذلك مثل شخصية المتكلم، وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة وأثر في المعنى وفهمه. وقد تنبه الأقدمون من علماء العرب لمثل هذا النوع من العناصر. ومن هؤلاء الجاحظ في- وقد أخذ

١ - علم اللغة، السعران / ص٢٦٣

من صحفية بشر بن المعتمر- إذ يقول هذا المعنى: (ينبغي للمتكلم إن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين اقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى يُقسم أقدار المعاني على أقدار الحالات...)[١] .

وبهذا يكون الجاحظ وقبله بشر بن المعتمر قد فتحا الباب واسعاً للنظر في الكلام من حيث شروط جودته وحسن تقبّله ووقعه في سامعه أو قارئه، ومراعاة الحال، أقدار المخاطبين، وبهذا يكون علماء العربية قد سبقوا المدراس اللغوية الغربية في الدرس الدلالي، وفي مراعاة الحال النفسية للمتلقي وغيرها من العناصر ذات الأثر في الخطاب وفي تحويل الكلام إلى خطاب مُستحضر لأطراف الخطاب ومقاماته، وهنا لا يقاس الكلام بالنظر إليه في حدّ ذاته بل بالنظر إليه داخل علاقته بمقامه وعلى قدر موافقته لمقتضى حاله. وقد اهتم علماء البلاغة العرب بهذا الجانب اهتماما بالغاً، وقد فطّن الأقدمون من العرب لهذا، ومن هؤلاء محمد بن يعقوب السكاكي إذ يقول: (إن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا

١ - البيان والتبين، الجاحظ، ج ١ / ص٧٧.

مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر)[١].

وهذا يعنى أن مفهوم المعنى –في ذاته – لم يخل من البحث عند المفكرين لما يُطرح من إشكالات ولما يتداخل فيه من موضوعات ومجالات كلامية وحالات نفسية متعددة ومتنوعة بين عقدية، وإنسانية، وأدبية، وطبيعية، ورياضية وغيرها مما يوحي بإن مفهوم المعني الواضح مُشكل في حدّ ذاته. مما يُولد: (قلقاً دلالياً). ولما كان من الصعب الوقوف على كل تلك الموضوعات يكتفى الباحث بعرض فكرة السياق والمقام والحال عند العرب وأثرها في المعنى.

١ مفتاح العلوم، السكاكي / ص ١٦٨-١٦٩

المبحث الرابع

فكرة السياق والمقام والحال عند العرب أثرها في فهم المعنى: -

أولاً: - السياق في اللغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور (ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً ... أذ تتابعت، والمساقة المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً)[١].

فسوق الإبل، يحتاج لدُربة ومران، وهي مجتمعة، كما أن لها أحوال ولكل حال شأن، فمنهم من يزجرها ومنهم من يحدو لها، فيلحق المتقدم بالمتأخر أو يراعى حاله، وهكذا سوق الكلام يُؤخذ من اجتماع الالفاظ بحوالها ولأحوالها لتتعلق كل كلمة بجاراتها واخواتها التي تشبه حالاتها. قال ابن فارس:(السين، والواو، والقاف: أصل واحد وهو حَدْوُ الشيء يُقال ساقه سوقه سوقاً)[٢]

ثانياً: - السياق اصطلاحاً: سياق الكلام، تتابعه وكيفية ورده بطريقة خاصة ولأحوال وأغراض.

وتشير البحوث والدراسات اللغوية قديماً وحديثاً لأهمية السياق وإلى أن معرفته ضرورة للقراءة الصحيحة وكذلك للكتابة وللحديث أيضاً. والسياق من الظواهر اللغوية القديمة التي صرح بها علماء العرب قديماً، لكنهم لم

١ - لسان العرب، ابن منظور / مادة سوق -٢١٥٣-٢١٥٤.

٢- معجم مقياس اللغة، ابن فارس، ج٣ /ص١١٧.

يفردوا له مباحثاً منفصلة، بل كانت ملاحظات متفرقة أولها يرجع إلى القرن الأول الهجري.

أصبحت فكرة السياق أو المقام هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفي في الوقت الحاضر، ونجد أن مفهوم السياق عند تمام حسان يتسع ليشمل جملة متغيرات تتعلق بالنص إذ يقول: (فالذي أقصده بالمقام ليس إطاراً ولا قالياً وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءاً منه كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل جوانب عملية الاتصال من الإنسان والمجتمع والتأريخ.. والغايات والمقاصد)[١].

والباحث في علوم اللغة العربية يجد أن هنالك آراء كثيرة تُوحي بمعرفة علماء العربية بالعناصر غير اللغوية وخاصة فكرة السياق أو الحال أو المقام كما أنه يُدرك مدى وعى القدامى بالخطاب واعتبارهم للمقام في تحديد المعني، ومدى مساهمة المقام في القراءة الصحيحة للنص وكذلك ضرورة معرفة السياق للكتابة والحديث أيضاً وبما أن النصوص المكتوبة تفتقد عنصر المقام الاجتماعي مما يجعل الغموض يكتنف النص، فيخفى على الناقد أو الباحث من ظروف النص الكثير ولهذا يجب إعادة تكوين المقام بتصور ما يمكن تصوره من أحداث أو معرفة الجوانب النفسية في النص وإسقاطات الكاتب للوصول إلى أكبر قدر ممكن من المعاني . وهذا يعنى أن

١- اللغة العربية معناها ومبناها، حسان / ص٢٣

كلاً من النص والسياق يعتمدان اعتماداً كلياً على الأخر، وإن للسياق علاقة مباشرة في فهم وتفسير الوحدات الكلامية. ولابد من الوقوف عند فكرة أو المقام عند العرب بمختلف اهتماماتهم ومناهجهم.

المبحث الخامس

فكرة السياق أو المقام عند النحاة واللغويين: -

ومن المعلوم أن كل نص منطوقاً كان أم مكتوباً له أمور متقضية له. وأحوال داعية للتكلم أو الكتابة، مما يجعل لكل كلام خصوصية واعتبارات معينة تختلف باختلاف مقتضيات الأحوال، ويمكن أن يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر لكي يوافق الحال، ولا يمكن أن يخرج الكلام عن مقتضى الحال، لان خروج الكلام عن الحال خروج عن البلاغة. ولهذا اهتم النحاة واللغويون بالسياق أو المقام وظهر عندهم مصطلح مفهوم السياق أنواعه ودلالاته ووضحوا الفرق بين المعنى المعجمي للكلمة والمعنى السياقي، فالمعنى المعجمي هو(المعنى الذي نستقيه من المعجمات المختلفة، ويمثل المعنى الوَضعي الأصلي للفظ، والذي سُمَيَ (المعنى المركزي) [١]أو(الأساس)[٢].

لابد أن تكون محاصرة المعنى بدافع تقليص الاختلاف وتقريب وجوه التأويل والمقاربة بين مناهج استقصاء المعنى وسبل مباشرته، وإشكاليات تحديده والاختلاف في شأنه. فمثلاً الدراسات النحوية طلبت المعنى في اللفظ مفرداً ومركباً ولم تطلبه في خارج إطار الجملة أو التركيب فالمعنى القائم في اللفظ المفرد في صيغته الصرفية وفي دلالته المعجمية والمعني القائم في اللفظ المركب يستفاد من علاقات الألفاظ بعضها ببعض من خلال علامات

١ -المطول شرح تلخيص المفتاح، التفتازاني / ص.

٢ - اللغة العربية معناها ومبناها، حسان / ص ١١

إعرابها ووظائفها ومواقعها، وقد سمى عبد القاهر الجرجاني هذه المعاني (معاني النحو).

ولم يهتم الدرس النحوي بمقام الكلام خارج الجملة، ولم يُظهر دوره في أداء المعنى، لان المقام ليس مكوناً لغوياً ولا عاملاً مباشراً من العوامل الكامنة في اللفظ بل المقام هو: الأمر المقتضى للإتيان بالكلام على كيفية ما، باعتبار حلول الكلام فيه)[١]. ومعالجة أمر المقام من اهتمام الدرس البلاغي.

ومع أن الوحدات الكلامية ليست مجرد سلسلة أو خيوطاً من صنع الكلمات، فهناك مكون لا كلامي يُفرض بالضرورة فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية ، فيقول جون لاينز:(فالمميزات غير الكلامية ذات أهمية في الوحدة الكلامية وتحديد معناها كأهمية معنى الكلمة والمعنى النحوي ويدخل كلاهما في المكون الكلامي)[٢] .

وقد فطن الأقدمون من النحاة لأهمية المقام الذي تتشكل فيه العناصر اللغوية مشيرين بذلك إلى تأثير سياق النص اللغوي وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وغير ذلك. (فالوظيفة النصية تختص ببناء الحدث اللغوي

١- مدخل إلى البلاغة النبوية، القاعود / ص١٤.

٢ اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز / ص ٢٧-٢٨

(المقال) وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ولقوانين النحو ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها)[١].

ويُلاحظ الباحثُ أن الدراسات اللغوية الحديثة تهتم بالمتغيرات الخارجية ذات الصلة بالنص على نحو ما نجد ذلك عند نهاد الموسى إذ يقول (وكنت نظرت في سياق بحث مختلف في كتاب سيبويه ألتمس فيه هذا العنصر من عناصر التحليل فوجدته منذ ذلك العهد المبكر يفزع إلى "السياق"، والملابسات الخارجية وعناصر المقام ليرد ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طلباً للاطراد المحكم وهو يوافق فيما صدر عنه في الكتاب ملاحظات كثيرة مما تنبني عليه الوظيفة ومناهج " التوسع"، أو اللغويات الخارجية بعبارة دي سوسير)[٢] .

وهذا يبرهن على أن المصادر اللغوية العربية القديمة ذات سبق في التفكير اللغوي الذى أخذ طابع الحداثة كما هو الحال في كتاب (الكتاب) لسيبويه، وخاصة أن هناك جملة ملاحظات فيها كثير من السبق في التفكير اللغوي، عند من أتخذ من العربية لساناً، وسيبويه يجمع في الكتاب بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق، ولا يقف عند الجانب اللغوي الخالص المنسجم مع نظرية العامل بل يتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام ويقول نهاد الموسى في هذا الموطن: (كما تنبه

١- الدراسات الإحصائية للأسلوب، مصلوح / ص ١١٨.

٢- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، الموسى / ص٨٨.

إلى الدور السياق في أمن اللبس وتحديد البناء الجواني المقصود من البناء البراني ذي الاحتمالات)[١] .

ويظهر اهتمام سيبويه بالعناصر غير اللغوية بحيث أنه يجعل من موقف الخطاب أو الاستعمال هو الفيصل في حكمه بصحة التراكيب النحوية أو خطئها، فالباحث يجد سيبويه يقف عند الجملة الواحدة ولكنه ينظر إليها في إطار الحال أو السياق فيحكم عليها حسب هذا السياق بالخطأ أو الصواب، ولا يكتفى بالنظرة النحوية الصرفة إلى الجملة، وسار على طريقته هذه مع التوسع فيها أصحاب شروح الشواهد النحوية مثل البغدادي في (خزانة الأدب).

وما أورده الباحثون يبرهن على ما ذهب إليه الباحث من سبق العرب لكثير من الشعوب في التفكير اللغوي المتسم بالعلمية والموضوعية والمبنى على ملاحظة قوية تتعلق بالنصوص والعناصر الداخلية فيها والخارجة عنها، ويقول تمام حسان: (وبهذا يكون اللغويون العرب عند اعترافهم بفكرة " المقام"، متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي " المقام"، و " المقال"، باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة)[٢].

١ - نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، الموسى / ص٩٠- ٩١.

٢ - اللغة العربية معناها ومبناها، حسان /٣٧.

المبحث السادس

فكرة السياق أو المقام عند النقاد والبلاغيين

وأن اهل البلاغة حين صاغوا تعريفات علم البلاغة واعتمدوا على وجهات نظر متعددة لتلك التعريفات. فمنها ما يراعى المخاطب (المتلقي) ومنها ما يراعى جانب المتكلم (المرسل للخطاب) ومنها ما يراعي الحال أو السياق أو المقام أي أنهم أهتموا بالعوامل الخارجية ذات الأثر على النص. ومن هؤلاء الجاحظ (٢٥٥هـ) إذ أنه استحضر المتلقي عند وصفه للكلام بالبلاغة في قوله:(لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يُسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه في قلبك)[١].

أما ابي هلال العسكري(٣٩٥هـ) حين عرّف البلاغة فقد راع جانب المتكلم (المُرسل للخطاب)، إذ يقول:(البلاغة كل ما تبلغ به قلب السامع فتُمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حَسُن)[٢].

وهذا المقصد وهو عين ما عناه الرازي (٦٠٦هـ) حين قال واصفاً البلاغة: (بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز المخلّ، والإطالة المملّة)[٣] .

١ البيان والتبيين، الجاحظ، ج١ / ص١١٥

٢- الصناعتين، العسكري / ص١٠.

٣ نهاية الإيجاز، الرازي / ص ٩.

كما أن الدراسات البلاغية راعت جانب المقام (السياق) الذى يقال فيه الكلام، فنجد القزويني (٧٣٩هـ)، يُميز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم، فيُعرف البلاغة بقوله:(هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)[١] .

ونلاحظ ان القزويني يُعرف بلاغة الكلام بانها مطابقته للحال، والمراد بالحال الأمر الداعي للتكلم بطريقة مخصوصة. فما المراد بمقتضى الحال (ويسمى الاعتبار المناسب).

كما أن الباحث يجد أن البلاغة العربية في زمن متأخر نسبياء،وقد أولت المقام عناية فائقة إلا إنه في علم واحدٍ من علوم البلاغة العربية وهو علم المعاني، إذ يقول السكاكي في تعريف هذا العلم: (هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره)[٢].

ويُعرف التفتا زاني مقتضى الحال بقوله: (ومقتضى الحال في التحقيق هو الكلام الكلى المكيف بكيفية مخصوصة على ما أشار غليه في المفتاح)[٣] .

ويقول الدسوقي في حاشيته على السعد: (مقامات الكلام الأمور المتقضية لاعتبار خصوصية ما في الكلام، وأذ اختلفت المقامات لزم اختلاف

١ الإيضاح في علوم البلاغة / ص٩.

٢- مفتاح العلوم، السكاكي / ص٧٠.

٣- مختصر التفتا زاني، ج٢ / ص١٥٧.

مقتضيات الأحوال لأن [١]اختلاف الأسباب في الاقتضاء يُوجب اختلاف المسببات) .

ويمكن تحديد زوايا مفهوم (مقتضى الحال) في كل من: حال السياق وحال المتكلم وحال المخاطب.

وبما أن الحال هو الأمر الداعي للتكلم على وجهٍ مخصوص، فإن الباحث يتجاهله لأنه يتعلق بمفاهيم أو مصطلحات، السياق، والمتكلم، والخطاب، ولما كان السياق أهم روافد المعنى بالنسبة للمتأخرين، كما أنه يمثل أساس الدرس اللغوي، وأقصر الطرق لكشف المعنى عند المحدثين فلابد من معرفة السياق في اللغة والاصطلاح. ويورد جبل في هذا الموضوع قوله: إذا حدثت عن – يعني تفسير كلام الله عز وجل – قف حتى تنظر ما قبله وما بعده. وهذا من النظر إلى السياق بعينه)[٢].

وهذا ابن الأنباري (٣٢٨هـ)، يقول: (إن كلام العرب يُصحح بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بأخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ...)[٣].

ولعله أراد بالحروف هنا الكلمات، وكونه يصحح بعضه بعض أى: متعلق في معناه، أوله بأخره، وهذا وهو السياق بعينه.

---

١ – حاشية الدسوقي، الدسوقي، ج ١ / ص١٢٥.

٢- المعنى اللغوي، جبل / ص٩٤.

٣- الأضداد، ابن الأنباري / ص.

وقد صرّح -أمام البلاغة – عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) بمصطلح السياق، وأشار إلى دوره في المعنى عند حديثه عن آية التحدي بإعجاز القرآن، في قوله تعالى﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾الإسراء: ٨

حيث قال: (وفي سياق آية التحدي ما يدل على فساد –القول بالصرفة – وذلك أنه لا يقال عن الشيء يمنعه الإنسان بعد القدرة عليه، وبعد أن كان يكثر مثله مته: أني جيئتكم بما لا تقدرون عليه مثله ولو احتشدتم له ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه، وإنما يُقال: أني أعطيت أن أحول بينكم وبين كنتم تستطلعونه وأمنعكم إياه)[١] .

وعرفه محمد جبل بقوله: (مؤدى الكلام السابق واللاحق ومقتضاه في تفسير بغض الألفاظ أو تحديد المعاني المرادة من بين معانيها)[٢].

فقد عرفه بدوي طبانة بقوله: (هو الصورة المخصوصة التي تُورد عليها العبارة فمثلاً المدح حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الإطناب، –وذكاء المخاطب حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز. فكل من المدح والذكاء حال، وكل من الإطناب والإيجاز مقتضى. وإيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة للمقتضى)[٣].

١ – ثلاث رسائل في أعجاز القرآن. للرماني الخطابي، والجرجاني / ص ١٣٦.

٢ – المعنى اللغوي، جبل / ص٩٤.

٣– معجم البلاغة العربية، طبانة / ص٥٤٨.

ويلاحظ على تعريف بدوي طبانة لمقتضى الحال دقيق وواضح، كما أنه عرف الحال بقوله:(الأمر الداعي إلى إيراد الكلام على صورة مخصوصة. سواء أكان ذلك الأمر الداعي ثابتاً في الواقع، أم كان ثبوته عند المتكلم)[١].

ونلاحظ أن العُرف البلاغي قد وقف طويلاً امام المفهوم الحاد لمصطلح مقتضى الحال، ومراعاته، لكنه سرعان ما يوظفه مرادفاً لصفة (التناسب)، وهو اجدى من الناحية العلمية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في الكلام البشري من حيث موافقة الكلام لمقتضى الحال لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم:٣ –٤

ويقول الجاحظ عن بلاغته في هذا المضمار من الكلام: (استعمل المبسوط (الإطناب) في موضع البسط، والمقصور (الإيجاز) في موضع القصر)[٢].

وقد امتاز البيان النبوي بخصائص وسمات أسلوبية ذات أشكال شتى، وألوان متعددة في البناء التعبيري، الشيء الذي يجعله على قمة البلاغة البشرية، ويجعل سياق نصوصه، ومراعاتها لمقتضى أحوالها، واغراضها أنموذج لدراسة مقتضى الحال ومراعاته، فالرسول صلي الله عليه وسلم، يستخدم الإطناب في معاهداته لما تحمله من حقوق وواجبات، ونلمح ذلك في صلح

١ – طبانة، المرجع السابق / ص١٨٨

٢ البيان والتبيين، الجاحظ، ج٢ / ص٨.

الحديبة [١] وكتاب الموادعة بعد هجرته من مكة إلى المدينة، الذى يمثل دستور عمل ومعايشة في المجتمع الجديد ويستخدم- صلي الله عليه وسلم – الإيجاز في المقام الذى يقتضيه، فحينما يبحث إليه مسيلمة الكذاب الذى يدعى فيه النبوة، وانه شريكه في الأرض (ولكن قريشاً قوماً لا يعدلون) .

فجاء جواب الرسول – صلي الله عليه وسلم – في سطرين: (أما بعد: فإن الأرض لله يؤرثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين)[٢].

وبهذه الرسالة القصيرة حقق الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه غرضين اساسيين هما: -

أولهما: تربوي وهو الترفع عن الخوض في جدل عقيم مع رجل دعيّ، لاهم له إلا الجاه والسلطان، أبهة الدنيا.

ثانيهما: عقدي، وهو تقرير الرد في صورة حقيقة عامة وتعتبر جوهراً من جواهر العقيدة الإسلامية، وهى (أن الأرض لله يُورثها من يشاء)[٣] .

وقد يصل الإيجاز النبوي الشريف درجة عالية من التكثيف والتقطير، فتصبح الرسالة أشبه ما تكون بالبرقية فقد كتب عليه الصلاة والسلام إلى عمه العباس بن عبد المطلب ما نصه: (أن مقامك بمكة خيرُ)[٤] .

١- إمتاع الأسماع، المقريزي / ص ٢٧٧ -٢٩٥.

٢ – السيرة النبوية، ابن هشام / ص٦٠٠ ،

٣ – أدب الرسائل في صدر الإسلام، ج١/ ص١٣.

٤ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة –ص٥٢ ط٣ – دار الإرشاد بيروت.

وهذه الرسالة في غاية الإيجاز والإعجاز لإن مقام الكلام يقتضي ذلك ومهمة العباس رضى الله عنه في مكة كذلك.

والعناصر غير اللغوية ذات أهمية بالغة في الخطاب، ومعرفتها تساعد كثيراً في فهم النصوص وغاياتها، وتكشف عن منزلة بلاغتها، وصوابها.

وكما انه يجعل الفصاحة شرطاً في البلاغة، ويُلاحظ تركيزه على السياق وبذكره مقتضى الحال، ولعل الذوق هو العمدة في اختيار الكلام الذي يوافق مقتضى الحال، وأن الالفاظ حين الخطاب يكون لها غاية كما لها مقام، فألفاظ التهنئة يكون تخالف ألفاظ التعزية، كذا المقام، كما أن الألفاظ تختلف باختلاق مقامها كذا يختلف أثرها حسب سياقها وصدّقها وتعبير صاحبها اللفظي وغير اللفظي مثل تعابير الوجه والعينين وحركة اليدين وغيرها العوامل الخارجية المؤثرة في مضمون الرسالة الخطابية. وان دراسة هذا الأثر، تشترك فيه علوم البلاغة وعلم النفس والاجتماع وغيرها.

ومن هنا تتبين أهمية النظر فيما يقتضه الحال في تعميق الدرس البلاغي العربي، وخاصة أذا نظر البلاغيون في العلاقات السياقية بين طرفي الخطاب، بمعنى أن يدرس البحث العلاقة المباشرة بين المخبر والخبر أو الحدث.

وقد ظهرت مصطلحات عند العرب الأقدمين توحى باهتمامهم بهذا المجال، كما أن هناك مصطلحات بلاغية وغيرها تنبئ بمعرفتهم على ضوء استعمالاتها عندهم مثل المقام والحال، والموضع والمقدار والأقدار والمشاكلة والمطابقة والاقتفاء والظرف والسياق والمناسبة والملاءمة. وهذه المصطلحات

كثيرة تتداول عند الأقدمين والمحدثين ممن درس قضايا المعنى والتفسير والأصول وقد أهتم بعضهم بتعريف المصطلح وفطن أخرون إلى مكونات النص الخارجية أو المؤثرات عليه ويقول تمام حسان: (أن كل نص يعتبر مكونات ظرف معين)[١].

فالمتغيرات الخارجية غير الكلامية ذات أهمية في تحديد المعني، وهي جزءُ من معنى الكلام مثل شخصية المخاطب والمتكلم وما بينهما من علاقات وما يحيط بالكلام من ظروف بيئة واجتماعية واخرى ذات صلة، ولعل ذلك ما فطن له علماء أصول الفقه الإسلامي، إذ أنهم نظروا للظاهرة اللغوية من زاوية محسوسة تتعلق بالأصول، فالأصولي أن يكون متفقه في الدين الإسلامي، باحث عن المعنى الشّرعي في النص الديني قرآناً كان وسُنة من جهة وفيما حول النص من أخبار إجماع أو غير ذلك.

١ - اللغة العربية مبناها ومعنها، حسان / ٢١٥

المبحث السابع

فكرة السياق أو المقام عند الأصوليين والمفسرين

فالأصوليين في بحثهم عن المعنى الشرعي يتخذون منهجاً علمياً له أسس نظرية وتطبيقية تتصف بالدقة وتعمق النظر في النص وحوله لإقامة الحجة له وعلى خصومه مما أخصب البحث اللغوي خاصة في قضايا اللغة المتصلة بالقراءات(الأصوات) والتأويل الذي يمثل نمطاً من أنماط البحث في المعنى، كما أن البحث الأصولي يُعد الكلام خطاباً، ولا غرابة في ذلك فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خطاب من الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم موجه لعباده من آمن منهم ومن كفر حسب حاله، في عبارة مصنوعة على سنن العرب في كلامهم.

كما ان أولى الافكار التي تناولت السياق وردت في الدراسات الأصولية خاصة في كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي (٢٠٤هـ) حيث عقد رسالة أسماه (باب الصنف الذى يُبين سياقه معناه)[١].

وهذا يعنى أن نظرية السياق عند العرب و المسلمين قد سبقت الغرب بمئات السنيين وقد عرف العرب أهمية السياق بعناصره المقالية والحالية، ولعل أول من نصّ على ذلك بوضوح الإمام الشافعي حين ذكر أن الكلام يكون:(عاماً ظاهراً يُراد به العام، ويدخله الخاص، وظاهراً يُعرف من سياقه،

١- الرسالة، الشافعي / ص ٦٢.

أنه يُراد به غير ظاهره فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره)[١] .

لم يكن الأصوليون وحدهم الذين فطنوا لأهمية السياق في فهم دلالة النص القرآني وترجيحها، بل أن المفسرين قد أظهروا اهمية السياق في فهم الدلاة أدراك المعاني المختلفة إذ يقول ابن قيم الجوزية (٧٥١ه):(السياق يُرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة وهذا من أعظم القرائن الدالة مراد المتكلم)[٢].

فابن قيم الجوزية يوضح أهمية السياق في أدراك المعني سواء أكان ظاهراً او خفياً، مجملاً أو مفصلاً، أو غير ذلك. ويجعل السياق وما يكتنفه من علاقات، من أعظم أهم القرائن الدالة على قصد المتكلم وغرضه من الكلام.

وهذا الرأي نفسه قد ذهب إليه العز ابن عبد السلام (٦٦٠ه) من قبل حين يقول:(وقد يتردد معنى الآية بين محامل يتساوى بعضا مع بعض، ويترجح بعضها على بعض، وأولى الأقوال ما دّل عليه الكتاب في موضع آخر، أو السنة، أو أجماع الأمة أو سياق الكلام، وإذا احتمل الكلام معنيين، وكان حمله على أحداهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان حمله عليه أولى)[٣] .

١ الرسالة، الشافعي / ص٥٢ – انظر السيوطي- الإتقان في علوم القرآن – ج ٤-ص ٢١٣-٢١٤.

٢ – بدائع الفوائد، ابن القيم، ج/١ص٨٣.

٣ – الإشارة إلى الإيجاز، العز / ص٢٢.

ومما هو ملاحظ أن العز بن عبد السلام أشار إلى أمرين من الأهمية بمكان هما: -

أولاهما: دور السياق في انتقاء الدلالة الراجحة للنص.

ثانيهما: دور السياق في عملية ترجيح الأقوال.

وهنا تظهر أهمية السياق في تفسير المعنى وأدراكه، لان المعنى هو الغرض الأساسي لصياغة النص، مكتوباً كان أم مسموعاَ، وان السياق هو الاتجاه الصحيح في الكشف عن المعنى، كما أنه يجب أن يُطبق هذا المنهج على النصوص المنطوقة ذات المقام الحاضر الحي، وكذلك على النصوص ذات المقام المنقضي الذي يُمكن إعادة بناؤه بالوصف التاريخي. وهذا يعنى أن الظواهر اللغوية خاضعة لضغوط مقامية واعتبارات غير لغوية وهي نظرية المقامات ومقتضيات الأحوال.

يلاحظ أن المقام قد عُرف من قبل البلاغيين واللغويين والمفسرين وغيرهم ومن ذلك قولهم: (والمقامات هي جملة الظروف الحافة بالنص بما في ذلك السامع نفسه ولئن لم يضبطها البلاغي العربي ضبطاً نظرياً، فإن تواتر استعمالها كفيل بأن يُعطي القارئ فكرة ضافية عن المراد منها وهو إجمالاً التلاؤم بين الحديث وملابساته ونوع اللفظ، فللجد موضع وشكل وللهزل

موضع وشكل)[١] وضح الطبري أهمية السياق بقوله:(وصل معاني الكلام بعضها ببعض أولى، ما وجد إليه سبيلُ)[٢] .

ومما سبق يظهر جلياً معرفة العرب بكيفية سبر أغوار المعنى، وتفننهم في التعبير عن المعاني بطرق مباشرة وغير مباشرة، وإدراكهم للمعاني الناتجة من التعبير، اهتمامهم بالعناصر غير اللغوية وإدراك أثرها في توجيه المعنى.

١ علم الأسلوب، التفكير البلاغي / ص٣٠٢ -- صلاح فضل /ص ١٨٠

٢ - تفسير الطبري، الطبري، ج٩ / ص٢٦٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي أنعم على الباحث بإتمام هذا البحث الذي توصل فيه لنتائج من أهمها: اهتمام العرب بالمبحث الدلالي اهتماماً بالغاً قديماً وحديثاً وسبقهم في هذا المجال ومعرفتهم القديمة للعناصر غير اللغوية وأثرها في الخطاب وأهميتها في الإبلاغ. وأن علماء العرب اختلفت مناهجهم في طرائق استقصاء المعنى باختلاف غاية كل باحث أو عالم حسب مجاله وأهدافه ومصدر نصه قُدسي كان أم بشري. كما أن كثرة طرائق معرفة المعنى عند العرب يُوحي بسبقهم في البحث الدلالي، وكذلك معرفة العرب لمصطلحات الحال والمقام والسياق والاقتضاء تدل على إدراك العرب للعناصر غير اللغوية ذات الأثر في المعنى. تَّوصي الدراسة بالإفادة من الآراء المبثوثة في ثنايا كتب التفسير والبلاغة وتوظيفها في مباحث علم الدلالة وخاصة الدلالة الصوتية والتركيبة والاهتمام بالعناصر غير اللغوية وأثرها في أدراك المكتوب والمنطوق وتحليل النصوص.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- لسان العرب، ابن منظور، جلال الدين بن منظور، دار المعارف بمصر، (د.ت).

٢- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت ١٩٦٤م

٣- ثلاث رسائل في أعجاز القرآن، للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق، محمد زغلول سلام، وأخر، دار المعارف بمصر، (د.ت).

٤- المعنى اللغوي: دراسة نظرية وتطبيقية، جبل، محمد حسن، مطبعة التركي، طنطا، مصر ١٩٨٩م.

٥- الأضداد، ابن الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م

٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، محمود جار الله الزمخشري، دار الفكر، مصر ط١، ١٩٧٧م.

٧- مفتاح العلوم، السكاكي، محمد بن يعقوب السكاكي، ط١، (د.ت).

٨- اللغة العربية معناها ومبناها، حسان، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، ١٩٧٩م.

٩ – التفكير البلاغي، علم الأسلوب، فضل، صلاح فضل، دار الشروق مصر، ط١،١٩٩٨م.

١٠- البيان والتبيين، الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٥م.

١١-الخصائص، ابن جني، ابو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد على النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٥م.

١٢- تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر. (د. ت).

١٣- المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت، (د.ت).

١٤- جمهرة اللغة، ابن دريد، مكتبة المثنى بغداد ١٣٥٤هـ

١٥- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، المطبعة الخيرية، جمالية مصر الطبعة الأولى، ١٣٠٦ه.

١٦- الفرق للأصمعي – تحقيق صبح التميمي، دار أسامة، بيروت، ط١ ١٩٨٧م

١٧- الفرق لابن فارس – تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٥م.

١٨- الخليل، الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق الدكتور عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧م.

١٩- علم اللغة، السعران، محمود السعران، دار الفكر العربي، ط٢ ١٩٩٧م.

٢٠- المطول شرح تلخيص المفتاح، التفتازاني، مسعود بن عمر٧٩١هـ، دار الهادي، بيروت،٢٠٠٣م.

٢١- معجم مقياس اللغة، أحمد بن فارس، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ط٢، ١٩٦٩م.

٢٢- مدخل إلى البلاغة النبوية، حلمي، حلمي القاعود، دار النشر الدولي – ط١ ١٤٣٢ه – ٢٠١١م

٢٣- صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢ه

٢٤- اللغة والمعنى والسياق، لانيز، جون لاينز، ترجمة د. عباس صادق عبد الوهاب،(د.ت).

٢٥- الدراسات الإحصائية للأسلوب، مصلوح، سعد مصلوح، عالم الفكر، (د.ت)

٢٦- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، الموسى، نهاد الموسى، الجامعة الأردنية، د. ت.

٢٧- كتاب الصناعتين، (الكتابة والشعر)، العسكري، أبوهلال العسكري، ط١- تحقيق: على محمد البجاوي، محمد أبي الفضل إبراهيم –عيسى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٥٥م.

٢٨- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: نصر الدين حاجي مفتي، دار صادر، بيروت، ط١ ١٤٢٤ه، ٢٠٠٤م

٢٩- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، الخطيب القزويني، ط١- دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٣م.

٣٠- معجم البلاغة العربية، طبانة، بدوي طبانة، دار المنار، جُدة، ط٣ ، ١٩٨٨م.

٣١- لسيرة النبوية، ابن هشام، ا مصطفى الحلبي القاهرة –ط٢ ١٣٧٥هـ،١٩٥٥م.

٣٢- إمتاع الاسماع، المقريزي، د.ن، القاهرة، ١٩٤١م.

٣٣ – قميحة، جابر قميحة، أدب الرسائل في صدر الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة –ط١ ١٩٨٦م.

٣٤- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد بيروت.

٣٥- الرسالة، الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الاثار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م.

٣٦- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ط٣، تحقيق محمد الفضل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م.

٣٧- بدائع الفوائد، ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ط١، دار الكتاب العربي بيروت، (د.ت).

٣٨- الإشارة إلى الإيجاز، العز، العز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: رمزي سعد الدين، دمشقية، (د.ت)

٣٨- الأضداد –. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية بيروت – ١٩٨٧م

٣٩- ثلاث رسائل في أعجاز القرآن للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق- محمد زغلول سلام، وأخر، دار المعارف بمصر، (د.ت).